وجدَ مشروعٌ بحثيّ كبير أجرته مؤسَّسة إنقاذ الطفل أدلَّةً واسعة الانتشار عن "الضغط النفسي السامّ" ومسائل الصحّة النفسية بين الأطفال داخل سوريا، فيما يحذّر الخبراء من آنّ الضرر النفسي قد يكونُ من المستحيل إلغاء آثاره

- **تُظهر النتائج أنَّ 84% من الراشدين وجميع الأطفال تقريبًا يعتقدون أنَّ التفجير والقصف المتواصل هما السبب الأوَّل للضغط النفسي في حياة الأطفال اليومية**
- **يقولُ 50 % من الأطفال إنَّهم لا يشعرون قطعًا بالأمان في المدرسة أو نادرًا ما يشعرون به، ويقولُ 40% إنّهم لا يشعرون بالأمان عندما يلعبون في الخارج، حتّى خارج منزلهم مباشرة.**
- **قال 89% من الراشدين إنّ سلوك الأطفال صار مشحونًا أكثر بالخوف والتوتّر مع استمرار الحرب**
- **قال 71% إنّ الأطفال يعانون بشكلٍ متزايد من التبوّل المتكرّر في أثناء النوم ومن التبوّل اللاإرادي**

- **يقولُ الخبراء إنّنا نبلغ نقطة الأزمة؛ فإذا لم تنتهِ الحرب قريبًا ولم يتلقَّ الأطفال الدعم النفسي الذي يحتاجون إليه، سيكونُ من الأصعب بكثير معالجة الضرر عندما يبلغون سنَّ الرشد.**

كشفَ تقريرٌ جديد من مؤسَّسة إنقاذ الطفل عن أزمة الصحّة النفسية التي يعانيها الأطفال المحاصرون في سوريا، فيما تقترب الحرب من نهاية عامِها السادس.

أجرت المنظَّمة وشركاؤها السوريون مقابلاتٍ مع أكثر من 450 طفلاً، ومراهقًا، وراشدًا عبر سبع محافظات في سوريا، في إطار تقريرها "الجروح الخفية"، وهي أكبر دراسة من نوعها أجريت في خلال مسار النزاع. ووجدت أنَّ الكثيرَ من الأطفال يعيشون في حالةٍ من الخوف شبه الدائم، ويعانون الهلع من جرَّاء القصف، والغارات الجوية، والعنف المستمرّ، مع ما يترتّب عن ذلك من عواقب نفسية وخيمة.

وأشارَ خبراء الصحّة النفسية الذين تمّت استشارتهم من أجل إعداد هذا التقرير إلى أنَّه أظهر أنَّ الأطفال يعانون وضعًا يُسمَّى "الضغط النفسي السامّ"، وقد يحصل عندما يختبر الأطفال محنةً قوية، أو متكرّرة، أو ممتدّة، مثل العنف الشديد الذي يحدث في النزاع السوري.[1] والاستجابة المستمرّة للضغط النفسي السامّ قد تؤثّر تأثيرًا يدومُ مدى الحياة على صحّة الأطفال النفسية والجسدية.

كشفت الأبحاث كيف أدَّت الحرب إلى تدمير الطفولة. فقد قال حوالى نصف الأطفال الذين جرت مقابلتهم إنّهم لا يشعرون بالأمان في

---

[1] مركز الطفل النامي، جامعة هارفرد، http://developingchild.harvard.edu/science/key-concepts/toxic-stress/؛ شونكوف، وج ب، وغاردنر، أ س (2012)، *The Lifelong Effects of Early Childhood Adversity and Toxic Stress* ، الأكاديمية الأميركية لطبّ الأطفال

المدرسة أو عندما يلعبون في الخارج. وفي المقابلات ومجموعات التركيز، تبيّن أنّ 78% من الأطفال يشعرون بالأسى والحزن الشديد في بعض الأحيان أو في جميع الأوقات، كما قال جميعُ الراشدين تقريبًا إنَّ الأطفال صاروا أكثر توتّرًا أو خوفًا مع استمرار الحرب.

زينب، 12 سنة، في مخيَّم للنازحين في الحسكة شمال شرق سوريا: *"عندما أتت الحرب، نسيَ جميعُ الأطفال السوريين كلّ ما تعلّموه وباتوا لا يعرفون الآن سوى الحرب. أشعرُ أنّني رأيت الكثير من الأمور الفظيعة. وفاتني عامان دراسيان، كما أنّ أخي كبرَ وبالكاد تعلَّم. فماذا لو تقدّمت في السنّ واستمرّيت على هذا المسار نفسه وخسرتُ مستقبلي كلّه؟"*

ظهرت آثار العبء النفسي المتواصل على الأطفال من خلال التبوّل في أثناء النوم، والتبوّل اللاإرادي في الأماكن العامة، وتعثّر الكلام، وفقدان الأطفال تمامًا للقدرة على التكلّم، وتزايُد العدائية وتعاطي مواد الإدمان. وتفيدُ المجتمعات المحلّية والأخصّائيون أيضًا عن ازدياد حالات إيذاء النفس ومحاولات الانتحار بين الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم 12 سنة.

محمد، عامل إغاثة مع "شفق" شريكة مؤسّسة إنقاذ الطفل في إدلب: *"أتحدّث معكم من منطقة قد يموتُ فيها الناس في أيّ لحظة، وانعدام الأمان والأمن هذا يؤدّي إلى الكثير من المشكلات النفسية لدى الأطفال. فنحن نلاحظ أنّهم مصابون بالضغط النفسي دائمًا ويرتعدون لدى سماع أيّ صوت غير مألوف، إذا تحرّك كرسيّ أو أغلِقَ الباب بقوّة، وذلك بسبب خوفهم من صوت الطائرات والقذائف. ينعزلُ الأطفال بشكلٍ متزايد ولا يحبّون المشاركة في نشاطاتنا، ونرى لدى الأطفال الصغار الكثير من حالات التبوّل اللاإرادي."*

وقد تشكّل مثلُ هذه العوارض علامةً "للضغط النفسي السامّ" لدى الأطفال الذي يصفه الخبراء باعتباره أخطر أشكال الاستجابة للضغط النفسي التي قد يختبرها الطفل.

ألكسندرا شين، أخصائية في حماية الطفل والصحّة النفسية في جامعة هارفرد: *"صحيحٌ أنَّ الأطفال قادرون على التكيّف، إلّا أنَّ التعرّض المتكرّر للأحداث الصدمية الشديدة التي يختبرها الكثيرُ من الأطفال السوريين يضعهم في خطر كبير يتمثّل في العيش في حالةٍ من الضغط النفسي السامّ."*

"من المرجّح أن يؤثّر ذلك تأثيرًا مدمّرًا يدومُ مدى الحياة على الصحّة النفسية والجسدية لهؤلاء الأطفال، فيعيق نمو الدماغ وأعضاء أخرى، ويزيد من خطر أمراض القلب، وتعاطي مواد الإدمان، والاكتئاب، وغيره من اضطرابات الصحّة النفسية في سنّ الرشد."

مع وضع حدّ للعنف، وتأمين الدعم المناسب، والتدخّلات المبكرة، يستطيع الأطفال التعافي من التجارب الصدمية. لكنّ أزمة صحّة الطفل النفسية أوشكت أن تصلَ إلى نقطة اللاعودة في سوريا، في موازاة انهيار هيكليات الدعم العائلية والخدمات الرسمية.

وبما أنّ الراشدين أنفسهم يعانون الضغط النفسيَ الشديد ويجاهدون للتأقلم، فقد قال طفلٌ واحد من أصل كلّ أربعة أطفال جرت مقابلتهم إنّهم نادرًا ما يجدون أو لا يجدون أبدًا مكانًا يقصدونه أو شخصًا يتكلّمون معه عندما يخافون، أو يحزنون، أو ينزعجون.

وقد فرَّ من البلد عددٌ كبيرٌ من الأطبّاء والأخصائيين، وبسبب التفجيرات اللامتناهية والعوائق التي تعترض عمّال الإغاثة وتمنعهم من الوصول إلى أكثر المناطق تضرّرًا، يتوفّرُ القليل من خدمات الصحّة النفسية الرسمية. وفي حال وُجِدَت، غالبًا ما يمتنع الناس من الوصول إليها بسبب الوصمة الاجتماعية.

د. مارسيا بروفي، مستشارة رفيعة المستوى لدى مؤسَّسة إنقاذ الطفل لمنطقة الشرق الأوسط بشأن دعم الصحّة النفسية والدعم النفس-اجتماعي: *"إنّنا مقصّرون بحقّ الأطفال داخل سوريا، فبعضهم يُتْرَكون للتأقلم مع تجارب مؤلمة، بدءًا برؤية أهلهم وهم يُقتَلون أمامهم، وصولاً إلى أهوال الحياة في ظلّ الحصار، من دون الدعم المناسب. إنّنا نخاطر بالحُكم على جيلٍ من الأطفال بحياةٍ مليئة بالمشكلات الصحّية النفسية والجسدية – فعلينا أن نكفلَ للأطفال الذين سبق أن خسروا ستّ سنوات من حياتهم من جرّاء الحرب، ألّا يضطروا إلى خسارة مستقبلهم كلّه أيضًا."*

في نهاية المطاف، إنّ الطريقة الوحيدة للبدء بإبطال الضرر اللاحق بالأطفال تتمثّل في وضع حدٍّ للسبب الجذري لضيقهم – العنف المستمرّ في سوريا، لا سيَّما الغارات الجوية والقصف اللذين برزا بقوّة في التقرير باعتبارهما السبب الرئيسي لمسائل الصحّة النفسية لدى الطفل.

وقالت المديرة الاقليمية للإعلام والمناصرة في منطقة الشرق الأوسط في مؤسَّسة إنقاذ الطفل ميستي بسويل: *"ما تظهره هذه الأبحاث هو أنّنا نشهد أزمة صحّة نفسية لدى الأطفال ناجمة عن ستّ سنوات من الحرب في سوريا. فالأطفال يضطربون عندما يسمعون صوتًا قويًا، ويخشون اللعب في الخارج، ويخافون من الذهاب إلى المدرسة إنّما يقلقون من خسارة مستقبلهم إذا لم يتعلّموا.*

"إنّها مأساة لا يمكن السماح باستمرارها – نستطيع وضع حدٍّ للضغط النفسي السامّ الذي يعانيه الكثير من الأطفال من خلال وقف قصف المناطق المدنية وتزويد الجميع بإغاثةٍ تنقذ حياتهم وكذلك بالدعم النفسي."

بالإضافة إلى الوقف الفوري لإطلاق النار والتفاوض على وضع حدٍّ للعنف، تدعو مؤسَّسة إنقاذ الطفل:

- جميعَ الأطراف إلى وقف استخدام الأسلحة المتفجّرة في المناطق المأهولة ومهاجمة البنى التحتية المدنية كالمدارس والمستشفيات، إذ تبيَّن بوضوح أنّ هذا هو السبب الرئيسي لضيق الأطفال وخوفهم.
- إلى وضع حدّ فوري لتكتيكات الحصار والوصول غير المقيّد للمساعدات الإنسانية إلى جميع المناطق، حتّى تتمكّن الوكالات مثل مؤسَّسة إنقاذ الطفل وشركائنا من بلوغ الفئات الأكثر استضعافًا.
- الجهات المانحة إلى القيام بالتزامٍ عالمي جديد بدعم صحّة الأطفال النفسية ورفاههم في حالات الطوارئ، بما في ذلك التمويل الكافي لبرامج الصحّة النفسية والبرامج النفس-اجتماعية داخل سوريا.

ملاحظات للناشرين:

- من أجل إعدادِ هذا التقرير، تحدّث موظّفو مؤسَّسة إنقاذ الطفل وشركاؤها مع 458 طفلاً، ومراهقًا، وراشدًا داخل سبع من محافظات سوريا البالغ عددها 14 – فهذه أوسع وأشمل دراسة أجريت حول صحّة الأطفال النفسية ورفاههم داخل سوريا في خلال النزاع.

أجريَت الأبحاث بين كانون الأوَّل/ديسمبر 2016 وشباط/فبراير 2017 وتألّفت من:

- 313 استبيانًا فرديًا، شملت 154 مراهقًا تتراوح أعمارهم بين 13 و17 سنة (59 فتاة، 95 فتًى) و159 شخصًا من الأهالي ومقدّمي الرعاية الراشدين (61 امرأة، 98 رجلا).
- 17 مجموعة تركيز ضمَّت 125 طفلاً (56 فتاة، 69 فتًى) موزَّعين على أربع فئات عمرية: 5-7، 8-11، 12-14، و15-17 سنة. أمّا الأعمار الأكبر سنًا فقُسِّمَت إلى مجموعات للفتيات وأخرى للفتيان.
- مقابلات مفصّلة مع 20 شخصًا من عاملين نفس-اجتماعيين، وأطفال، وعاملي إغاثة، ومعلّمين، وأهالٍ، وعلماء نفس.

أجريت الأبحاث مع أخصائيين متدرّبين قدّموا أيضًا الإسعافات الأوّلية النفس-اجتماعية للأطفال المعنيين. حصلَ ذلك في عدَّة مواقع في حلب، ودمشق، ودرعا، والحسكة، وحمص، وإدلب، وريف دمشق، مع مقابلاتٍ إضافية مع خبراء متواجدين في بلدان مجاورة لسوريا.

- تودّ مؤسّسة إنقاذ الطفل توجيه الشكر إلى موظّفينا المتفانين في سوريا، وكذلك إلى مختلف المجتمعات المحلّية السورية، والأفراد، والمنظّمات الإنسانية التي ساهمت في هذا التقرير. تشمل هذه المنظّمات: بنفسج، وشفق، وغصن زيتون، وهيئة الإغاثة السورية (Syria Relief)، والجمعية الطبية الأمريكية السورية، ومنظّمات أخرى كثيرة ترغب بعدم الكشف عن إسمها من أجل مواصلة جهودها المبذولة في سبيل مساعدة الأطفال في سوريا.

- تقدّم مؤسّسة إنقاذ الطفل دعم الصحّة النفسية والدعم النفس-اجتماعي والنشاطات التربوية للأطفال عبر 10 محافظات من سوريا، وكذلك في البلدان التي تستضيف اللاجئين السوريين. إنّ مقاربتنا لبرامج دعم الصحّة النفسية والدعم النفس-اجتماعي تشمل "HEART" (الشفاء والتربية من خلال الفنون للأطفال) وقدرة الطفل على التكيّف (Child Resilience)، وهي تتبع المبادئ التوجيهية للجنة الدائمة المشتركة بين الوكالات حول برامج الصحّة النفسية والبرامج النفس-اجتماعية.

علاوةً على ذلك، تقومُ مؤسّسة إنقاذ الطفل بدعم سبعة مرافق للرعاية الصحّية الأوّلية ومستشفى للولادة، كما تجري حملات التلقيح، وتوزّع المواد المنزلية، ورزم النظافة الشخصية، ورزم اللوازم الشتائية، من بين نشاطات أخرى في سوريا. وقد بلغت برامجنا لغاية الآن أكثر من 2.4 مليون شخص داخل سوريا، من بينهم ما يزيد عن 1.5 مليون طفل.